

رثاء المدن والممالك : ٠ تعريف رثاء المدن : وهو لون من التعبير يعكس طبيعة التقلبات السياسية التي تحتاج عصور الحكم في مراحل مختلفة. وهذا النوع من الرثاء لا يقف في حدود عند رثاء المدن وحدها حين يصيبها الدمار والتخريب ولكنه يتجاوز ذلك إلى رثاء الممالك تارة والعصور تارة أخرى. كما حدث ذلك في الأندلس. وقد تميز هذا الغرض من رثاء المدن في الشعر أكثر من تميزه في النثر. ويُعد رثاء المدن من الأغراض الأدبية المحدثة، ذلك أن الجاهلي لم تكن له مدنٌ يبكي على خرابها، رثاء المدن في المشرق. عرف المشرق قدرا من هذا الرثاء شعراً، عندما تعرضت عاصمة الخلافة العباسية للتدمير والخراب خلال الفتنة التي وقعت بين الأمين والمأمون. فنهبت بغداد وهتكت أعراض أهلها واقتحمت دورهم، ووجد السّفلة والأوباش مناخاً صالحاً ليعيثوا فساداً ودماراً. وهو شاعر شامل الذكر، عن هذه النكبة في مرثيته لبغداد فقال: يابؤس بغداد دار مملكة دارت على أهلها دوائرها بالخسف والقذف والحريق وبال حرب التي أضحت تساورها حلّت ببغداد وهي آمنة داهية لم تكن تحاذرها ثم كان خراب البصرة على يد الزنج في ثورتها المشهورة. فأشعلوا فيها الحرائق وحولوها إلى أنقاض ودمار، فوقف الشاعر ابن الرومي مذهولاً بما حدث فقال: كم أخ قد رأى أخاه صريعاً تربّ الخد بين صرعى كرام كم مفدّى في أهله أسلموه حين لم يحمه هناك حامي كم رضيع هناك قد فطموه بشبا السيف قبل حدّ الفطام وبالإضافة إلى هاتين المرثيتين، حفل ديوان رثاء المدن في المشرق، بطائفة من القصائد تتحدث عن تلك المدن التي اسقطها هولاءكو وتيمور لنك. ومن أبياته قوله: إنسان عيني مذ تناءت داركم ما راقه نظر إلى إنسان ما للمنازل أصبحت لا أهلها أهلي ولا جيرانها جيران يقول في آخر القصيدة: إن القيامة في بغداد قد وجدت وحدّها حين للإقبال إديار آل النبي وأهل العلم قد سُبّوا فمن ترى بعدهم تحويه أمصار ماكنت أمل أن أبقى وقد ذهبوا لكن أتى دون ما أختار أقدار وكذلك كان رثاء دمشق عندما سقطت في أيدي التتار فتعاقب على رثائها كثير من الشعراء مسجلين ذلك الحدث ومنهم الشاعر علاء الدين العزولي في قوله: أجريت جمر الدمع من أجفاني حزنا على الشقراء والميدان لهفي على وادي دمشق ولطفه وتبدل الغزلان بالثيران واحسرتاه علي دمشق و قولها سبحان من بالغل قد أبلاني لهفي عليك محاسنا لهفي عليك عرائسا لهفي عليك مغاني ولكن هذا اللون في المشرق لم يزدهر ازدهاره في الأندلس، ويعزى ذلك إلى أن طبيعة التقلبات السياسية في الأندلس كانت أشد حدة وأسرع إيقاعا، رثاء المدن في الأندلس. إذ كان مواكباً لحركة الإيقاع السياسي راصداً لأحداثه مستبطناً دواخله ومقوماً لاتجاهاته. وكان محوره الأول يدور حول سلبات المجتمع الأندلسي بسبب ما انغمس فيه الناس من حياة اللهو والترف والمجون وانصراف عن الجهاد. وأن الأمر لن يستقيم إلا برفع علم الجهاد تحت راية لا إله إلا الله. ومن هنا فالصوت الشعري لرثاء المدن في الأندلس يخالف الأصوات الشعرية الأندلسية الأخرى التي ألفها أهل الأندلس في الموشحات ووصف الطبيعة والغزل وبقية الأغراض الأخرى. ويُفسّر ذلك إما بخشيتهم من السلطان القائم بسبب تقديمهم للأوضاع السياسية وإما أن عنايتهم بالحس الجماعي واستنارته كانت أكثر من عنايتهم بذواتهم الشاعرة. والفتيات المسلمات انتهكت أعراضهن، والدويلات المسلمة تستعين بالنصارى في تدعيم حكمها. كان سقوط مدينة طليطلة في أواخر القرن الخامس الهجري بداية المأساة؛ يقول شاعر مجهول يرثي طليطلة في قصيدة مطلعها: طليطلة أباح الكفر منها حماها إن ذا نبأ كبير كما تصور ماضيها المجيد وحاضرها المهين. وتنتهي بأمنية مشتهاة أن يخرج من أصلاب المسلمين بطلٌ كطارق بن زياد يعيد الأمر إلى نصابه: ألم تك معقلا للدين صعبا فذلّه كما شاء القدير وأخرج أهلها منها جميعا فصاروا حيث شاء بهم مصير أي قلب على هذا يقر ولا يطير فيا أسفاه يا أسفاه حزنا يكرر ما تكررت الدهور ثم تختم المرثية بهذه الأمنية: يكرّ إذا السيوف تناولته وأين بنا إذا ولت كروور ويطعن بالقنا الخطار حتى يقول الرمح من هذا الخطير؟ وتعد مرثية الشاعر ابن الأبار لمدينة بلنسية من المرثيات المشهورة في الأندلس، أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا وهب لها من عزيز النصر ما التمسست فلم يزل منك عزّ النصر ملتمسا مدائن حلها الإشارك مبتسما جذلان، وارتحل الإيمان مبتئسا بالمساجد عادت للعدا بيعا وللنداء غدا أثناءها جرسا ثم يلتفت إلى أبي زكريا سلطان تونس قائلا: طهر بلادك منهم إنهم نجس ولا طهارة ما لم تغسل النجسا وأوطى الفيلق الجرار أرضهم حتى يطأطى رأسا كل من رأسا وأملاً هنيئاً لك التأييد ساحتها جرداً سلاهب أو خطية دُغسا وأما مرثي الممالك فمن أشهرها مرثية أبي محمد، الدهر يفجع بعد العين بالأثر فما البكاء على الأشباح والصور؟ وفيها يقول: أنهاك أنهاك لا ألوك موعظة عن نومة بين ناب الليث والظفر وفي هذه المرثية، يحشد ابن عبدون الكثير من أحداث التاريخ وتقلباته ويحكي ما أصاب الدول والممالك من مأسٍ ومحن متخذاً من ذلك سبيلا للعظة والتأسي. وتمتاز القصيدة على طولها بحاسة شعرية قوية وعاطفة جياشة تزواج بين مأساة بني الأفطس الذاتية والسياسية. ومن أهم المرثيات التي ربطت بين المأساة الذاتية والسياسية قصيدة أبي بكر بن عبد الصمد في رثاء مملكة إشبيليا وأميرها الشاعر المعتمد بن عباد: ملك الملوك أسامع فأنادي أم قد عدتك عن السماع عوادي لما خلت منك القصور ولم تكن فيها

كما قد كنت في الأعياد قد كنت أحسب أن تبدد أدمعي نيران حزن أضرمت بفؤادي وتعد أيضا دالية ابن اللبانة في رثاء بني عبّاد ومملكتهم من تلك المرثي التي ربطت بين مأساة المعتمد وضياع ملكه ومأساة الشاعر حين هوى عن عرش الشعر ومملكته: على الجبال التي هُدّت قواعدها وكانت الأرض منهم ذات أوتاد نسيبت إلا غداة النهر كونهم في المنشآت كأموات بألحاد تفرقوا جيرة من بعد ما نشأوا أهلا بأهل وأولاداً بأولاد وإشبيليا مهد الفن، وكيف أفقرت الديار من الإسلام فصارت المساجد كئناس وغدا صوت الأذان صوت ناقوس؟!، ثم يهيب أبو البقاء الرندي بفرسان المسلمين عبر عدوة البحر إلى المسارعة لنجدة الأندلس والمسلمين. يقول في أول القصيدة: وللحوادث سلوان يسهلها وما لما حلّ بالإسلام سلوان إلى أن يقول: وأين قرطبة دار العلوم، فكم من عالم قد سما فيها له شان وأين حمص وما تحويه من نزه ونهرها العذبُ فياض وملآن قواعد كن أركان البلاد فما عسى البقاء إذا لم يتبق أركان حيث المساجد قد صارت كئناس ما فيهن إلا نواقيس وصلبان حتى المحاريب تبكي وهي جامدة حتى المنابر ترتي وهي عيدان لمثل هذا يذوب القلب من كمدٍ إن كان في القلب إسلام وإيمان! وأهمية رثاء المدن أنه يكشف عن جوانب ثرية من التاريخ السياسي بين المسلمين والنصارى في الأندلس. وأن ملوك الطوائف حين حرصوا على ملكهم الفردي أضعوا ملكاً أعظم. وما أصدق سخرية الشاعر المصحفي حين قال: مما يزهديني في أرض أندلس أسماء معتضد فيها ومعتمد عرف الرثاء منذ العصر الجاهلي، وكانوا يرثون قتلاهم بذكر مناقبهم وبالبياء الحار عليهم حنّاً للقبيلة على الثأر. كما أن المرأة أدّت دوراً كبيراً في رثاء قتلى الحروب، إذ تذكر المصادر، أن الخنساء في الجاهلية كانت تخرج إلى سوق عُكاظ فتندب أخويها صخراً ومعاوية، ومن روائع مرثي الخنساء ما قالته في أخيها صخر: فقد رثى الشعراء أنفسهم قبل الموت، كقول أحدهم: فكذلك كانوا في مرثيهم يعددون فضائل الميت، حتى عرّف النقاد القدماء الرثاء بأنه ذكر فضائل الميت ومدحه. ظل الرثاء غرضاً شعرياً، فلم يعد الرائي يذكر ما حظره الإسلام من المعاني التي تتعارض مع ما أمر الله به من الصبر والإيمان بقضاء الله تعالى. وتتضمن أحياناً هجواً للمشركين وقتلاهم. وبجانب البياء في هذه المرثي أو تلك وبجانب الإشادة بالأموات، فما هو ذا عبيدالله بن قيس الرقيات يرثي ولدي أخيه عبدالله اللذين قتلوا في موقعة الحرّة، إلى قوله يتوعد الأمويين: والله أبرح في مقدمة أهدي الجيوش عليّ شكّتيه حتى أفجعهم بإخوتهم وأسوق نسوتهم بنسوتيّه تظهر مرثي الشيعة في الإمام الحسين، وأشهر شعرائهم في ذلك السيد الحميري ودِعيل الخُزاعي، وحين اشتدّت موجات الصّليبيين والمغول على المسلمين، كان من الطبيعي أن تشيع مرثي الشعراء في القادة خاصة، سواء من استشهد منهم أو من مات خارج المعركة. فمن ذلك مرثيهم في عماد الدين زنكي الذي استشهد على يد غلام له أثناء حصاره لإحدى القلاع، كما رثى الشعراء ابنه نور الدين حين مات، وفقد المسلمون بموته قائداً عظيماً. هذا إلى رثاء الأعلام من الوزراء والعلماء والقضاة. كما اصطبغ الرثاء بأصباغ فكرية، ومن طبيعة الشاعر لا يقول الوصف الأ وهو واسع الخيال لديه القدرة على والاستطاعة على تصوير المحسوس، والمواقف التي تثير مشاعر الشاعر وتجعله يبدي في الوصف. لا يقع تحت نظر القارئ عبر التصوير اللغوي إما بأسلوب نقلّي يكون فيه التصوير معادلاً للموضوع الموصوف، ملون بالعاطفة والخيال، كالرياض، والبحار، والأنهار، وأفردوا للوصف القصائد، أو حلوا صدورها به، وربطوا بين وصف الطبيعة وسائر ج. الخمريات. د. رثاء ولعل ما يهمننا في هذا المقام هو الحديث عن شعر وصف الطبيعة: في بيئة المغاربة والأندلسيون، بل وجد وبشكل كبير عند البغداديين والمشاركة بشكل عام، حيث وجد عند ابن الرومي والبحرتي ولكن كان لهذه الطبيعة الساحرة أثرها الكبير في خصب عقول الأندلسيين ورفاهية حسهم، نتيجة التحرر والانطلاق في مجمع الأندلس، لذا كان الشاعر يعتبر الطبيعة مسرحاً لحياته وفي أحضانها كان يستسلم للهوى وحبه وخمره، وكان ممتزجاً بها متفاعلاً معها. مظاهرو وصف الطبيعة في الأندلس: وهذا ابن خفاجة استولت على لبه الحدائق الفيح، كأنه طوق من ذهب يزين برد الغمامة، هذه اللوحة بقوله. مزج الطبيعة بفنون الشعر المختلفة: حتى تبدى البدر في جوزاء *** ملكا تنهى بهجة وبهاء وخير من فعل ذلك من الشعراء بن زيدون وعبر عن مشاعره لولادة في الزهراء: إني ذكرت في الزهراء مشتاقا *** يوم كأيام لذات لنا انصرمت *** بتنا لها حين نام الدهر سراقا. فظاهره خلط المدح بوصف الطبيعة لمتكن منابتكار الأندلسيون بل سبقهم بها المشاركه حيث كانت أصولها وقد حاول المشاركة القيام بهذا على حذر وتردد ثم بدا هذا واضحا في شعر أبي تمامو البحرتي، فالنسيم قد انبرى *** والنجم قد صرف العنان عن السرى والصبح قد أهدى لنا كافوره *** لنا التاريخ الأدبي بين دفتيه أسماء شعراء لمعوا في هذا المجال: ابنعمر، وصف الطبيعة مزوجاً بـ الرثاء لعبقرية وإبداع كي تؤدي بأكملوجه، والأمهم الدفينة، من قاموا بهذه التجربة " ابن خفاجة " حين رثى الوزير أباً عبد الله بن ربيعه حيث يقول في مطلعها: في كل ناد منك روض ثناء وبكل لاهزني أمل وقد حل الردى بأبي غير أن ابن خفاجة يقفز هذه المره طريقه القدامى تلذذ بدار القصف عني ساعة *** وابلغ ندامها اعزسلام *** أعظمها من أعظم ورجام. أهم شعراء الطبيعة الأندلسية: ابن

الشهيد، وابن زيدون والرصافي الرفاء وبعد أن جلنا هذه الجولات مع شعر الطبيعة نحب أن نضيف ، انه لم يحاول في أحيان كثيرة أن ينفخ فيها شيء من روحه ويمزج بها أحاسيسه ومشاعره مزجاً تاماً، بل اكتفبتصويرها معتمداً على الحواس الخمس وأبرزها حاسة البصر، ويبرزه معتمداً في ذلك على خياله وصوره الخلابه ولكن وجد هناك شعراء امتزجوا بالطبيعة وتجانسوا معها كابن خفاجه. المشاركة، بعزارة المادة ودقة التصوير وابتكار الفنون ، تبكي السماء بمزنٍ رائحٍ غادي = على البهاليل من أبناء عباد على الجبال التي هدت قواعدها = وكانت الارض منهم ذات أوتاد والرايبات عليها اليانعات ذوت = أنوارها فغدت في خفض أوهاد عريسة دخلتها النائبات على = أسود لهمو فيها وآساد وكعية كانت الامال تعمرها = فاليوم لا عاكف فيها ولا باد تلك الرماح رماح الخط ثقفها = خطب الزمان ثقافاً غير معتاد لما دنا الوقت لم تخلف له عدة = وكل شيء لميقات وميعاد كم من درارى سعد قد هوت ووهدت = هناك من درر للمجد أفراد نوراً ونور فهذا بعد نعمته = نوى وذا خبا من بعد ايقاد يا ضيف أقر بيت المكرمات فخذ = في ضم رحلك واجمع فضلة الزاد ويا مؤمل واديهم ليسكنه = خف الفطين وجف الزرع بالوادي ضلت سبيل الندى بابتسابت السبيل فسر = لغير قصد فما يهديك من هادي وأنت يا فارس الخيل التي جعلت = تختال في عدد منهم وأعداد ألق السلاح وخل المشرفي = فقد = أصبحت في لهوات الضيغم العادي من يؤت من مأمن لم يجده حذر = وقاتل نفسه ما أن له راد ومن يسد عليه الضر ناظره = فليس ينفعه أن الضحى باد لا عطر بعد عروس في حديثهم = قد أقفر الحي من هند ومن عاد غابت عن الفلك الأرضي أنجمهم = فليس للسعد فيهم نور إسعاد وأسوة لهم في غيرهم حسنت = فما شماتة أعداء وحساد ان يخلعوا فبنو العباس قد خلعوا = وقد خلت قبل حمص أرض بغداد نقول فيهم وهم أعلى برامكة = فالحال ذا الحال إفساد كإفساد كانت أسرتها من فضلها بهم = مثل المنابر أعواداً بأعواد هم الشواهد فيها كهف معتصم = مثل الأباطح فيها خصب مرتاد تباً لدنيا أذاقتهم حوادثها = برح العذاب وما دانوا بالحاد أضحت مكسرة أرعاط أسهمهم = وأسهم الدهر فيهم ذات إقصاء ذلوا وكانت لهم في العز مرتبة = تحط مرتبتي عاد وشداد حموا حريمهم حتى اذا غلبوا = سيقوا على نسق في حبل مقتاد تبدلوا السجن بعد القصر منزلة = وأحدقوا بصوص عوض أجناد وعبث في كل طوق من دروعهم = فصينغ منهن أغلال لأجباد وغُيرت نشوات اللاندين بهم = بمثل ما قصفوا من كل مناد تُرى نرى بعد أن قامت قيامتهم = من يوم بعث لهم فينا وميلاد وهل يكون لهم زند يُرى فيرى = لنارهم هبة من بعد إخماد نسيبتُ إلا غداة النهر كونهم = في المنتشات كأموال بالحاد تفرقوا جيرة من بعدما نشأوا = أهلاً بأهل وأولادا بأولاد حان الوداع فضجت كل صارخة=وصارخ من مُفداة ومن فادي سارت سفائنهم والنوح يتبعها=كأنها إبل يحدو بها الحادي كم سال في الماء من دمعٍ وكم حملت=تلك القطائع من قطعات أكباد من لي بكم يا بني ماء السماء اذا = ماء السماء أبى سقيا حشا الصادي وابن يوضح لي هدي الرشيد ضحى = أجلو به في ظلام الغي ارشادي عجباً لأهل النار حلوا جنة منها تمد عليهم أفياءها جرّد ظباك لمحو آثار العدتقتل ضرغامها وتسب ظباءها